فى آفاق حافظ ابراهيم

بمناسبة ذكرى وفاته

للأستاذ حسين مهدي الغنام

الشاعر الحق هو من ينظم فى كل ما يوحى إليه ترجمة عواطفه ، سواء كان ذلك عاقلا أم جاداً .

ولقد يقتصر شاعر من الشعراء على غرض واحد من أغراض الشعر ، ينظم فيه طيلة حياته ، فيبلغ الذروة فى هذا النمط الواحد وقد لا يستطيع أن ينظم فى غرض آخر ، ولكنك لن تستطيع الا أن تعده شاعراً من أكابر الشعراء ، وإن قصر فى غير الناحية الواحدة .

وقد يحكم لشاعر بقصيدة واحدة !

وكثيرون من الشعراء ينظمون فى مختلف الأغراض ، ويعددون أنماط شعرهم ونظمهم ، وقد يكونون رابع الشعراء الذين يقصدهم ابن رشيق فى كتابه العمدة !

وقليلون من أجادوا فى تلك النواحى والأغراض المختلفة ..

ومن هذا النمط من الشعراء كان شاعرنا حافظ ابراهيم .

فلقد تعددت آفاقه فى نظم الشعر ، وأسهم فى كل فن من فنونه ، صادق القول ، قوى التعبير ، جميل الأداء ، مرهف الاحساس ، متدفق البيان .

ولم يكن حافظ شاعراً فحسب ، ولكنه كان كاتباً أيضاً ، وإن لم يكن نثره فى مرتبة شعره .

وهذه بعض آفاق حافظ التى حلق فيها شاعراً مرهفاً ، وناثراً بليغاً .

١ — شاعر مصري :

كانت البيئة المصرية التى نشأ فيها حافظ مليئة بما يوز جوانب المخلصين من أبناء البلد ويقض مضاجعهم ، فقد كان الانحطاط سائداً فى كل ناحية من نواحيها .

فالجهل يخيم على الشعب كله تقريباً .

والاحتلال البغيض يقيد الشعب ورائديه ، ويكم أفواه هؤلاء ، ويلقى بهم فى غيابات السجون .

وهنا ظهر حافظ .

ظهر حافظ فكان لسان الشعب الناطق ، يصف شعور الجمهور ويذكيه ، وإن كان يشعر أن لسانه مقيد ، وقلمه مراقب ، وسيف الجلاد يلمع أمام ناظريه ، ولكن هل يصمت ، كما قال :

إذا نطقت فقاع السجن متكأى
وإن سكت فإن النفس لم تطب

كان شعور حافظ فى هذه الفترة ممثلا فى هذا البيت خير تمثيل . ولم يكن هذا شعور حافظ وحده ، ولكنه كان شعور المصريين بل الشرقيين جميعاً !

من الواضح أن حافظاً تأثر بالبارودى تأثراً شديداً فى حياته ومنهجه ...

ويعتبر البارودى أمام المدرسة الحديثة فى الشعر المصرى التى خرجت على أساليب المتزمتين فى الجيل السابق له ، فعاد البارودى ومن خلفوه بالشعر العربى إلى بعض عصوره الزاهية إبان النهضة العربية .

وقد قامت الثوره العرابية أيام البارودى ، بل كان البارودى بطلا من أبطالها المعدودين ، ولكنه لم يساهم فيها بقلمه وشعره ، بل ساهم فيها بسيفه ورأيه الفنى . وهو الحد الفاصل بين مدارس الشعر القديمة ، وفاتح أبواب المدارس الحديثة ، بل إمامها ورائدها ...

ولقد جاء حافظ من بعد البارودى فكان الحلقة المتوسطة بين المدرسة التى وضع أساسها البارودى ، وبين المدارس التالية التى أنشأها شعراء الجيل الجديد .

إلا أن حافظاً لم يسر سيرة البارودى فى ثورته ، فلقد أسهم حافظ فى ثورات المصريين التالية بشعره ، ولم يكن رائداً فيها بسيفه ...

ومن هنا كان حافظ يحق أول شاعر مصرى حديث ينطق بلسان شعبه ، وبلسان الأمم الشرقيه الشقيقة .

فهو يستحث الشعب على مقاومة الغاصب ، ومحاربته ، ويستنهض الهمم ، ويستنفر النفوس ، ولم يقتصر على السياسة !

فحسب ، وإن كان له فى السياسة والوطنيات ديوان ضخم قائم برأسه ، ولهذا لا أريد أن أنقل منه شيئاً هنا ، فقصائده عديدة ومشهورة .

ولكن حافظاً طرق أبواب الاصلاح كلها ، وحث المصريين على إصلاح عيوبهم الداخلية ، وحياتهم الاجتماعية المتأخرة ، ونعى عليهم عاداتهم السخيفة ، وتقاليدهم المزرية ، وشتى نواحى حياتهم المظلمة الراكدة ، وتكاسلهم وتوانيهم وقعودهم عن العمل والهجرة فى طلب الرزق ، فهو يفقد الألقاب ، والتكاسل ، وغيرها ، إذ يقول :

وهـــل فى مصر مفخرة ســـوى الالقاب والرتب
وذى إرث يكاثرنـــا بمـال غـــير مكتسب
وفى الروى موعظـــة لشـــعب جد فى اللعب

أمة قـــد قت فى ساعدها بغضها الأهل وحب الغربا
تعشق الألقاب فى غير العلا وتفدى بالنفوس الرتبـــا
وهى والأحداث تستهدفها تعشق اللهو وتهوى الطربا
لا تبالى لعـــب القوم بها أم بها صرف الليالى لعبـــا

ثم هو يدعو إلى الاصلاح الاجتماعى الشامل فى كل شىء ، قارئاً قصائده فى جمعيات رعاية الأطفال ، وقصيدته فى مدرسة بور سعيد للبنات :

لا تهملوا فى الصالحات فإنكم
لا تجهلون عواقب الأهمال

من لى بتربية النساء فإنها فى الشرق علة ذلك الاخفاق
الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

***

ربوا البنات على الفضيلة أنها فى الموقفين لهن خير وثاق
وعليكمو أن تستبين بناتكم نور الهدى وعلى الحياء الباقى

لو وفى بالزكاة من جمع الدنيا وأهوى على اقتناء الحطام
ماشكا الجوع معدم أو تصدى لركوب الشرور والآثام
راكباً رأسه طريداً شريداً لا يبالى بشرعة أو زمام
سائلا عن وصيه الله فيه آخذاً قوته بحد الحسام

فهؤلاء هم الذين ينشأون لصوصاً !

ثم يقول فى الجامعة المصرية القديمة :

حيا كم الله حيوا العلم والأدبا إن تنشروا العلم ينشر فيكم العربا
ولا حيـــاة لكم إلا بجامعة تكون أماً لطلاب العلا وأبا

وهو ينعى انحلالنا الاقتصادى كانحلالنا السياسى ، فيقول فى الشركات وفى اليهود :

وما الشركات السود فى كل بلدة سوى شرك يلقى به من تصيداً

لقد سعدت بغفلتنا فراحت بثروتنا ، وأولها (الترام)
فياويل الفتاة إذا احتواها بنو التامبز ، وانحسر اللثام

وفرّج أزمة الأموال عنا بما أوتيت من رأى سديد
وسل عنها اليهود ولا تسلنا فقد ضاقت بها حيل اليهود

ارحمونا بنى اليهود كفاكم ما جمعتم بجذقكم من نقود

فمصر هى فى نظره وفى خلده :

لا مصر تنصفنى ولا أنا عن مودتها أريم
وإذا تحـــول بائس عن ربعها فأنا المقيم

ولا تظن أبيـــاته القادمة إلا أنها ستظل خالدة يرددها المصريون ما داموا فى نكباتهم السياسية والاقتصادية يتخبطون ، لأنها تصور أحوالنا الحاضرة خير تصوير ، وتنطق بلسان كل مصرى مخلص :

متى أرى النيل لا تحلو موارده لغير صوتهب لله مرتقب
فقد غدت مصر فى حال إذا ذكرت
جادت جفونى لهـــا باللؤلؤ الرطب
كأننى عند ذكرى ما ألم بها قرم تردد بين الموت والهرب

أيشتكى الفقر غادينا ورائحنا ونحن نمشى على أرض من الذهب
والقوم فى مصر كالأسفنج قد ظفرت
بالماء لم يتركوا ضرعـــاً لمحتلب

٢ — شاعر شرقى :

ولم تقف آفاق حافظ عند مصر فحسب ، ولكنها شملت الشرق كله ، قاصيه ودانيه .

فكان يتوجع للأمم الشرقية السليبة ، كما قال شوقي : كلنا في الهم شرق ا .

ومن هذا قصائده في الترك ، والمغرب ، وسوريا ...

وكان يفخر بالأمة الشرقية الناهضة ، كفخره باليابان الفتية المتجددة ، وقصائده فيها معروفة . فليته حي ليقول فيها اليوم قولا ...

ثم إنه يحب أن يرى الوئام سائداً بين الشرقيين جميعاً ، ولا يتخذ الغاصبون من تنابذ الشرقيين بالأديان سبيلا إلى التفرقة بينهم . قال في عيد الدستور العثماني :

تحالف في ظل الهلال إمامة وحاشاه بعد الخلاف ـ وراهبه

خذوا بيد الإصلاح والأمر مقبل

فإني أرى الإصلاح قد طر شاربه

وقال في غزو الطليان لطرابلس :

بارك الطران في أعمالهم فعلوه بارك القوم على ما

أيهذا جاء إنجيلهمو آمراً ، باقٍ على الأرض سلاما

كشفوا عن نية الغرب لنا وجلوا عن أفق الشرق الظلاما

وقال في تحية العام الهجري ١٣٢٧ هـ :

سلوا الترك عما أدركوا فيه من مني

وما بدلوا في المشرقين وغيروا

وإن لم يقم إلا (نيازي) و (أنور)

فقد ملأ الدنيا (نيازي) و (أنور)

في هذه القصيدة وحدها سجل ما مر على الشرق كله في عام ، فقد جمع ما قامت به دوله من نهضات ، وما لمح فيها من بوارق نهضات وتقدم ، وفيها إهابة بالشرق أن يسير دائماً إلى الأمام ، وفيها أمان بعيدة عالية ، إذ يقول :

مضى زمن التنويم يا نيل وانقضى وفي مصر أيقاظ على مصر تسهر

وقد كان (مرفين) الدهاء مخدراً فأصبح في أعصابنا يتخدر

ثم يناشدهم فيقول :

رجال الغد المأمول إنا بحاجة إلى قادة تبنى وشعب يعمر

ويمضي في هذه المناجاة والإهابة حتى يبلغ قوله :

فما ضاع حق لم ينم عنه أهله ولا ناله في العالمين مقصر

لقد ظفر الأتراك عدلا بسؤلهم ونحن على الآثار لا شك نظفر

وكذلك قصيدته في العام الذي يليه ...

وإنك بمقارنتك بين هاتين القصيدتين تدرك آمال حافظ التي ظل يتغنى بها في مصر والشرق جميعاً طيلة حياته .

في الأولى تسجيل للأمل الذي بدا بنهضة الأمم الشرقية ، وفي القصيدة الثانية ثورة ، لأن كل ما أمل حافظ في تحقيقه لم يتحقق !

يقول في الثانية :

أشرق علينا بالسعود ولا تكن كأخيك مشؤوم النازل أخرقا

قد كان جراح النفوس فداوها مما بها وكن الطبيب موفقاً

هلات حين لمحت نور جبينه ورجوت فيه الخير حين تألقا

وهززته بقصيدة لو أنها تليت على الصخر الأصم لأعدقا

فنأى بجانبه وخص بنحسه مصراً وأسرف في النحوس وأعرقا

لو كنت أعلم ما يخبئه لنا لسألت ربي ضارعاً أن يمحقا

ولكنه يعود فلا ييأس ، ويخاطب شباب البلاد :

أهلاً بنابتة البلاد ومرحبا جددتمو العهد الذي قد أخلقا

لا تيأسوا أن تستردوا مجدكم فلرب مغلوب هوى ثم ارتقى

ولقد كان حافظ يريد أن يرى الشرق ناهضاً حياً ، ذا قوة ترهب الغرب ...

ولكن . . !

إلا أنه يتفاخر بأية أمة شرقية قوية ، ناهضة ، تطاول الغرب وتهزمه .

قال في حرب طرابلس ما قال ، كما تقدم ، ولكن قف عند هذا البيت من تلك القصيدة :

أيها الحائر في البحر اقترب من حمى (البسفور) إن كنت هاما

إن هذا البيت من شعر حافظ يصور لي حافظاً كالأسد السجين في قفص !

فبمن يتفاخر حافظ ؟

إنه لا يجد أمامه غير تركيا ، فيتحدى ببسفورها أسطول الطليان ، ويطلب إليه أن يقترب من حماه إن كان شجاعاً ، فسيضربه الترك ، وإن عجز عن ضربه المغاربة ...

وشيء خير من لا شيء ...

ولـكنه حافظ السجين الطليق ، الذى يأمل ويتمنى ويريد ، ولـكن الأقدار لم تسعده فتسعفه بما أراد !

ويظل حافظ بين عاملى الأمل واليأس والتفاخر والاستنهاض فإذ تسمعه يقول :

يا ليتنى لم أعاجـــل بالموت قبـل الأوان
حتى أرى الشرق يســـمو رغم اعتـــداء الزمان
ويســـترد جـــلالا له ورفعـــة شـــأن
وليعـــلم الغرب أنا كأمـــة اليـابان
لا نرتضى العيش يجرى فى ذلة أو هوان

تراه يقول أيضاً :

فاطمئنى أمم الشرق ولا تقنطى اليوم فإن المجد قاما
إن فى أضلاعنا أفئدة تعشق المجد وتأبى أن تضاما

٣ — شاعر ساخر :

ومن النواحى البارزة فى شعر حافظ سخريته اللاذعة ، فقد كان يصب غضبه وثورته فى أبيات من الشعر ساخرة شديدة المرارة ، وإن جاءت فى معرض النصح والمجد والوطنية !

قال فى قصيدة (آلامنا وآمالنا) المرفوعة إلى البرنس حسين كامل باشا :

فلا تثقوا بوعد القوم يوماً فإن سحاب سامتهم جهام
وخافوهم إذا لانوا فإنى أرى السواس ليس لهم ذمام
فكم ضحك العميد على لحانا وغر مرانتا منه ابتسام

وقال إلى روزفلت فى زيارته لمصر :

يا نصير الضعيف مالك تطرى خطة القوم بعد ذاك النكير
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم فى حماكم من دونهم ألف سور
أنت تطريهمو وتثنى عليهم ناثياً آمنا وراء البحور

***

وعجيب يفوز هذا بانطلاق وهذا فى ذلة المأســـور
يا نصير الضعيف حبب إليهم هجر مصر تفز بأجر كبير
فعليهم أن يهجروا وعلى المصرى ذكر المتيم المهجـــور

والأبيات الآتية من قصيدته فى استقبال الســير جورست :

قتيل الشمس أورثنا حياة وأيقظ هاجع القوم الرقود
فليت كرومرا قد دام فينا يطوق بالسلاسل كل جيد
ويتحف مصر آنا بعد آن بمجلود ومقتول شهيـد
انتزع هذه الأكفان عنا ونبعث فى العوالم من جديد

***

بحمد الله ملـكـكمُ كبير وأنتم أهـل مرحمة وجود
خذوه فأمتعوا شعباً سواما بهذا الفضل والعلم الفيد
إذا استوزت فاستوزر علينا فتى كالفضل أو كابن العميد

***

لحى بيضاء يوم الرأى هانت على حمر الملابس والخدود

***

وفرج أزمة الأموال عنا بما أوتيت من رأى سديد
وسل عنها اليهود ولا تسلنا فقد ضاقت بها حيل اليهود

كما قال ساخراً من سكوت المصريين على الضيم :

فيا ليت لى وجدان قومى ! فأرتضى
حياتى ولا أشقى بما أنا طالبه

وقوله :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم هى أمة تلهو وشعب يلعب

واقرأ كذلك قصيدته فى وداع اللورد كرومر ، فإن فيها من السخرية ما ينم عن روح حافظ فى هذا الضرب .

ومن سخريته القاتلة قوله فى حرب طرابلس :

قد ملأنا البر من أشلائهم فدعوهم يملؤوا الدنيا كلاما
خبروا (فكتور) عنا إنه أدهش العالم حرباً ونظاما
أدهش العالم لما أن رأوا جيشه يسبق فى الجرى النعاما
لم يقف بالبر إلا ريثما يسلم الأرواح أو يلقى الزماما
حاتم الطليان قد قلدتنا منة نذكرها عاماً فعاما
أنت أهديت إلينا عدة ولباسا وشرابا وطعاما
وسلاحا كان فى أيديكمو ذا كلال فغدا يفرى العظاما

ففى هذه الأبيات يصف حافظ الطليان على حقيقتهم ، كما عرفناهم ، حتى فى الحروب الأخيرة !

(البقية فى العدد القادم)

حسين مرهدى الفناص